

# تأثير وجود العناصر الدّينية وعدمها فى أسس الحضارة

(دراسة مقارنة بين الحضارات الدّينية والمادّية)

اختر سعيد الصديقى

ان أول سؤال يطرح فى الذهن تحت هذا العنوان ,, ماهى الحضارة ,,  
فالحضارة هى تقدم الحياة الاجتماعية فى مجتمع بحيث تشتمل كل  
مرافق الحياة واجزاءها وتنتشر فيها انتشار الروح فى الجسد .  
وحضارة أى مجتمع تعنى تطور علومه وادابه وفنونه وكل شىء فيه وتعنى  
كذلك رقى حياته المدنية والسياسية (١) . فالحضارة الأوروبية  
والحضارة الاسلامية والحضارة اليونانية كل منها عنوان خاص على  
طور معين فى حياة كل مجتمع منها . ومن شأن أى حضارة ان تكون  
قابلة للتجديد والتوسع مع تغير الزمان والمكان وكلما ضاقت هذه الحلقة  
انكلمت الحضارة حتى تزول . فالحضارة تتطور وبقالتغير الظروف  
والاحوال (٢) . ولكن هذا التطور ينصب على شكل الحضارة دون  
فكرتها الأساسية التى هى قوام الحضارة فان ذهابها ذهاب لتلك  
الحضارة من قواعدها فمن المحال لأية حضارة فى الدنيا أن تحافظ  
على كيانها بغير عقيدة أو فكرة أساسية . والشىء الذى يميز حضارة  
عن أخرى هو الاختلاف الأساسى فى هذه الفكرة أو فى الأصل الذى  
تقوم عليه الحضارة ثم تبرز على منهاجها طريقة جديدة فى الحياة  
ترسخ فى الازهان والقلوب رسوخ الايمان واليقين ، وتدفع قوة الفكر

والعمل بطريقة خاصة ولا يمكن أن تقوم أية حضارة فى العالم بدون أن تركز على فكرة أساسية .

فالفكرة الأساسية التى تقوم عليها الحضارة تتوقف على القضايا الأربعة الآتية .

الأولى : ما هو تصور الحضارة عن الحياة ؟ والمنزلة التى تضع الانسان فيها ؟ وما الدنيا فى نظرها ؟ وما علاقة الانسان بهذه الدنيا ؟ واذا كان له أن ينتفع بهذه الحياة فعلى أى وجه ؟ وهذا التصور للحياة على درجة كبيرة من الأهمية وله تأثير بالغ فى كل اعمال الانسان وبتغيير هذا التصور تتبدل نوعية الحضارة رأسا على عقب .

الثانية : ما هى غاية الحياة ؟ ما غاية الانسان فى هذه الدنيا ؟ لأى غرض كل هذا النضال والصراع وهذا الجهد والكبح والتعب ؟ ما هو الشئ المنشود الذى يطمع اليه الانسان ببصره ؟ ما الهدف الذى على الانسان ان لا يغفل عنه فى لحظات حياته ؟

وهذا السؤال عن غاية الحياة هو الذى يعين وجهة حياة الانسان العملية وسيرها و على ضوئها يسلك الانسان ما يسلك فى حياته من طرق للعمل ووسائل للتوفيق والنجاح .

الثالثة : ما هى الافكار والعقائد الأساسية التى تؤسس عليها سيرة الانسان وسلوكه فى هذه الدنيا ؟ — وما القالب الذى تفرغ فيه عقلية الانسان ؟ وما هى الآراء والمشاعر والأحاسيس التى تلقىها فى روحه وترسخها فى ذهنه ؟ وما هى الحوافز والمحركات التى تحويها لحض الانسان على اختيار لون

مخصوص فى حياته العملية تابعة لقواة الفكرية .

والروح التى تحرك جوارح الانسان انما تفيض من قلبه  
 وذهنه . فالحقيقة أن قواها العملية لا تتحرك الامفعلة بالعقيدة او  
 الفكرة الأساسية المستولية على قلبه وذهنه ولا تنشأ فيه العواطف  
 والنزوات والأحاسيس والدواعى الا وفقا للقلب المفرغ فيه  
 ذهنه ولا تعمل أعضائه وجوارحه الا تبعاً لهذه العواطف والنزوات  
 والأحاسيس والدواعى ونزولاً على حكمها .

الرابعة : وعلى أى أساس تقيم هذه الحضارة علاقة الانسان  
 بالانسان فى مختلف مواقعه فى الحياة ؟ وعلى أى نحو (قد)  
 تؤسس علاقاته بأسرته وجيرانه وأصدقائه وزملائه فى العمل  
 ومواطنيه وبمن هم أرفع منه فى الدرجة أو أدنى وبالسائرين  
 على نهج هذه الحضارة أو المخالفين لها أو غير الملتزمين بها  
 وماذاضمنت له هذه الحضارة من حقوق وما القت عليه من  
 واجبات ؟ وما مقدار ما منحتة من حرية وما مدى ما فرضت عليه  
 من قيود .

وهذا كله متضمن بطبيعة الحال لكل ما يتعلق بالأخلاق  
 الاجتماع والقانون والسياسة والعلاقات الدولية من المشاكل والقضايا  
 على أى أسلوب تنظم هذه الحضارة شئون الاسرة والمجتمع  
 والحكومة

تأتى بعد هذا فى البيان تمايز الحضارات باعتبار أصل المنشأ  
 تنقسم الحضارات من حيث فكرتها الأساسية الى قسمين رئيسين -

١ - الحضارات المادية او الحضارات الحسية -

٢ - الحضارات الدينية -

الحضارات المادية او الدنيوية هي التي تخلو من أى صلة او علاقة بالدين فلا وجود فيها لاله اولالهة أو رسل او كتب سماوية وليس فيها تعليم يقيم سيرة الانسان على أساس من الروحانية والأخلاق وانما هي أمور دنيوية محضة وهذه الحضارات تنشئ في أذهان الناس (تصور الحياة) تصورا ماديا محضا للحياة . وهى بالتالى لاتقدم أمام الانسان فى حركته وجهده وسعيه غاية الا حصول التفوق لذاته أو لقومه . والناس هم الذين يسنون لهذه الحضارات قوانينها ونظمها ويمجدونها ويحاولون حصر الرقى فى الطرق والوسائل المادية المكتسبة بالحواس والعقل ولادخل فى ذلك لوحى او دين .

والحضارات المادية تضع بناء ها على العلوم والعقائد التي تخرج الى حيز الوجود باختراع ذهن الانسان او بادراك حواسه دون هداية وتوجيه من خالقه ، لسنا نبحث الآن عن درجة هذه العلوم والعقائد ومعيار الحق ولكن من وجهة النظر العمرانى فقط نستطيع القول أن فى أساسها عيوباً غير محصورة ونقائص غير معدودة ومن الواضح أن البنيان لا يكون محكماً قويا اذا قام على أساس ضعيف .

ونذكر فيما يلى أهم العيوب الأساسية فى هذه الحضارات :

١ - هذه الحضارات لاتقوى على الحياة طويلا لأنها ليس فيها الاستعداد للتوسع الا قليلا ونظام هذه الحضارات كالتزئبق فانها بدلا من أن تسير فى خط مستقيم نراها تتأرجح وتتذبذب بين الصعود والهبوط وبين الارتقاء والانحطاط ونتيجة ذلك أن يموت الحضارة يزول أثرها - وذلك يرجع الى أن منهاج الفكر الذى تؤسس عليه الحضارات مأخوذ من المفكرين والحكماء والخبراء والزعماء الذين يستولون بسبب من الاسباب المختلفة على عقلية مجتمع . ويعتمد الناس على خبرتهم

ومهارتهم في مختلف شعب الحياة وهذا ليس بضروري أن نجد وحدة الفكر بينهم وذلك لأن عددهم فوق الحصر وكل منهم مختلف عن غيره في طريق فكره، ولكل منهم طريق خاص للفكر وزاوية مختلفة للنظر، ويتركب من هذه العناصر المختلفة خلط عجيب لا يكاد يقعد مزاجها، وبناء على هذا يحدث بين هذه العناصر ما لا يحصى من الخلافات الشديدة التي تزلزل بنيانها. ومن الطبيعي أيضاً أن أي مجتمع لا يظل متأثراً في كل ادواره وعصوره بأفكار اولئك الحكماء والمفكرين وتتغير أثرهم مع تغير الادوار والعصور فهذا التغير التي يقع فيها مرة بعد مرة يبدل شكل الحضارة ونوعيتها رأساً على عقب -

٢ - لا تكون هذه الحضارات على جانب من القداسة عند الناس لأنها تخلو عن أمور دينية ولا تكون كلها النتيجة للاجتهاد الانساني فهذا الاحساس بأن نظام الحضارة والمدنية كلها وتصوراتها الأساسية جميعها حاصلة من اختراع الذهن الانساني يوقع في قلوب الناس ارتياباً وتذبذباً والناس يعلمون أن العناصر الأساسية لحضارتهم فيها امكان للخطأ والنقص وأنها في حاجة الى الاصلاح والتعديل ثم ان التجارب العملية هي الاخرى التي لا تزال تثبت فيها شيئاً فشيئاً كثيراً من مكامن الضعف والنقص والخطأ، فالناس لا يتكيفون في اتباع هذه الحضارة بكيفية الايمان والاخلاص واليقين وبذلك تحدث في المجتمع كله حالة الارتياب والتذبذب - وهكذا فأى طريق من طرق الكفر او أى مبدأ من مبادئ القانون لا نجد في وجهه مجالاً لسيطرته عليها اوليقيم نظاماً للمدنية على أساس قوى بالمعنى الصحيح .

٣ - الحضارات المادية او الحسية خالية من عنصر الدين والروح و الخلق فاصحابها بتجردهم عن هذه العناصر لا تمضي

بهم القافلة غير مدة يسيرة حتى يفتح عليهم باب المفسد الخلقية من كل نوع . وأن القانون ليس من وظيفته أن ينشئ الباعث الخلقى فى قلوب الناس او يقيم لهم ميزانا خلقيا بالمعنى الصحيح . وليس فيه من القوة ما يستطيع ان يحافظ به على اخلاق الناس فى حياتهم الشخصية والاجتماعية لان دائرة عمله وتأثيره وسلطته ضيقة محدودة . وفى تلك الحالة بصفة خاصة اذا كان الناس هم الذين يضعون القانون لانفسهم وهم بالطبع يتمتعون بالحرية التامة فى تغييره و تحريفه او فى تضيق دائرته أو توسيعها على أنفسهم ، ويزداد شعورهم بان القيود الخلقية القديمة تضيق عليهم واذا أحس عامة الناس بهذه القيود، كذلك وان مارسوا ضغطا يرغم القانون على التخفيف من وطأته عليهم وهكذا لاتلبث الاخلاق تتخلى عن كل قيودها شيئا فشيئا وحينذاك لا بد أن يسرى فى كل المجتمع انحلال خلقى عام على وجه خطير جدا - وان الانحلال الخلقى اذا ظهرت آثاره المهلكة فى مجتمع لا يمكن وقف تياره بوفرة المال ولا بسطوة الحكومة ولا بقوة الوسائل المادية ولا بتدابير العلم والعقل . انه دودة تنخر بنيان عمارة الحضارة والمدنية حتى ينصدع من القواعد . ولتفصيل المفسد ومعايبها لاحاجة الى كلام كثير وبحث طويل . أفلا نشاهد اليوم أن موجات الفساد الخلقى والفحش والعري أمراً مالوفاً سائداً فى الحضارات الأوروبية المادية التى تعتبر أرقى الحضارات فى نظر العالم .

٤ - الحضارات المادية بتجردها عن أمور دينية لاتعرض أمام الانسان لسعيه وجهده الاغاية مادية بحيث يجتهد كل واحد للتفوق والترفع على الآخر فى الدنيا وهذه الغاية للتفوق والترفع تخلق

فى قلوبهم طلبا للغلبة والسطوة السياسة على سائر من فى الأرض بحسب الثروة وكثرة المال بصرف النظر عما اذا كانت هذه الرغبة تتحقق بفتح البلاد والسيطرة على وسائلها او بالاستيلاء على أسواقها وصناعاتها وهذه الرغبة تقودهم الى مسابقة فى مظاهر التقدم العمرانى فى العلوم والآداب والفنون أو لابتغاء العظمة والأبهة فى آثار المدينة والحضارة .

وهذه الغاية فى ظاهر الأمر ليست مكروهة ولكن بنظر عميق فى باطن الامر يثبت أنها تحدث المسابقة والمنافسة والصراع بين افراد المجتمع ولأجلها يجتهد كل فرد ان يتغلب على سائر ابناء مجتمعه ويفوقهم فى الثروة والحكومة والسيادة والقوة والبطش ومظاهر الترف والنعم والدعة والرفاهية ، ويحكم القبض على مفاتيح الرزق ويحتكر أكبر قدر ممكن من وسائل معيشتهم وموارد ثروتهم حتى تكون الرغبات والملذات والمنافع خالصة له ولا تكون الآلام والمضار والخسائر الا لغيره ، ولا تظهر نهاية لمثل هذا الطمع ولاحد يقف الفرد عنده . هكذا يتفشى فى المجتمع كله اضطراب دائم وقلق عام ، لاسكون فيها ولاقرار وهذه الكيفية عندما تحدث بين ابناء مجتمع فكل بيت من بيوته وكل سوق من أسواقه ، تنقلب الى ميدان للصراع والاحتكاك ويتلاشى الأمن والسلام ، والبهجة والسرور ، والسعادة النفسية والطمأنينة القلبية مهما تكدس لديه من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

وفوق هذا وذاك نقول أن التقدم المادى اذا لم يكن معه نصيب من الروحانية لا يستطيع أن يطمئن الانسان أو يجلب لنفسه السعادة والقناعة . لان الحصول على اللذات الحسية ليس الاغاية حيوانية

ولوقيل اننا نختار هذه الغاية للمجتمع كله وليس للأفراد ، ونقررها كغاية اجتماعية ، وفى سبيل تحقيقها على كل فرد أن يتناسى غايته الشخصية ويجهد لرفعة قومه ورفى مجتمعه ، فهذه نزعة القومية التى آمنت بها بعض المجتمعات البشرية ودافعوا عنها بكل اخلاص وحماسة حتى ان كثيرا من الشعوب والامم قد طاطأت رؤسها أمام صنم القومية .

وهذا التصور يجذبه النظر والقلب فى ظاهر أمره و ما هو فى الحقيقة الاخداع للعقول واغراء للنظر وهذه النزعة هى التى تحدث بين الأمم من الشقاء وهو البرق المحرق الذى يحرق مالديه من أسباب الأمن والسلام كلها وتمزق كيان المجتمع الانسانى كله ، فكل أمة تسعى الى تحقيق غاية التفوق والاستعلاء لنفسها وتبذل أقصى ما عندها من الجهود والقوى لبلوغها وتحقيقها ، فتكون نتيجة ذلك أن هذه الامم يقوم بينها صراع عنيف فى مجالات السياسة والاقتصاد وتنشب فيها حروب دامية للتنافس والتزاحم حتى ليتعذر على الأفراد ان ينالوا شيئا من الأمن والسلام والسعادة النفسية والطمأنينة القلبية وسط المشاكل والقلق والاضطراب . وهذا هو عين ما عليه الوضع فى البلاد الغربية اليوم ، فاننا نشاهد اليوم فى ,, أوروبا ,, أن نزعة القومية هى التى وصلت بأرقى حضارة فى العالم الى شفا جرف هار . وأن الخوف من ظهور عواقبها أمر تقشعر منه جلود اهل الارض اليوم .

اما الحضارات الدينية فتعتمد أسسها على الافكار والعقائد الدينية وهى تنهض بالانسان على أسس روحية وخلقية وتعترف بوجود اله أو الهة تضى عليها صفات مخصوصة ثم تؤمنها . فهذه الحضارات أيضا لاتخلو عن عيوب مهمة ونقائص مهلكة فأول عيب يظهر فيها أن تكون الافكار والعقائد التى تعتمد عليها الحضارة غير صالحة للتصديق



والاذعان من الوجهة العقلية بان تكون مشتملة على الأوهام والظنون  
 أوكانت الأوهام اكثر من الحقائق والمعقولات ، فان أثرها على ذهن  
 الانسان أن يكون خاضعا لسلطان الجهل والغباوة والحماقة . وبتقدم  
 الانسان فى مدارج الارتقاء العقلى تتحطم طلاسـم الاوهام والخرافات  
 الباطلة وتزلزل أسس الحضارة وتتداعى شيئا فشيئا وبعد ذلك  
 ينضم عرى النظام الذى أقيمت على أساسه سيرة الافراد فى حياتهم  
 الشخصية والاجتماعية والروحية والخلقية . ويمكننا ان نمثل لذلك  
 بتلك المعتقدات التى قدمتها ديانات الشرك عن الهتها واربابها  
 ورسـلها، فالصفات التى وصفوهم بها والأفعال التى نسبوها اليهم  
 والأساطير التى اخترعوها عنهم يابى العقل السليم أن يصدقها .

والمجتمع الذى تسود فيه هذه الحضارة التى أقيمت أسسها على  
 مثل هذه الأوهام والخرافات الباطلة لا يكون صالحا أن ينال فى الدنيا  
 نوعاً من التقدم والرقى والكمال . فهذه الظنون والأوهام الباطلة تؤثر  
 على الازهان تأثيرا سيئاً بحيث يشل أحسن ما فيهم من قوى العمل  
 والجد والنشاط فلا هو يحقق نوعاً من الارتقاء فى معنوياته ، ولا من  
 الشدة والصلابة فى عزائمه ولا من السعة فى نظره ، ولا من النور فى  
 ذهنه ، ولا من الجرأة فى قلبه ، وذلك ما يسبب لها آخر الامر الذل  
 والهوان والخضوع والنكبة والمسكنة والتابعة فى الدنيا .

وإذا انفتحت لمجتمع مثل هذا - لاسباب اخرى - سبل التقدم  
 والرقى فى الدنيا فانه على قدر ما يحرز من التقدم والرقى فى ميادين  
 العلم والعقل ، يزول عن قلوب أهلها الاعتقاد بالهتهم وأربابهم  
 وهداتهم . ومع أنه فى بداية الأمر يبذل اقصى جهوده للدفاع عن  
 عقائده ، رعاية لمصلحة نظامه الاجتماعى الا أن تمرد العقل والعلم .

على هذه العقائد يكون من الشدة بحيث لا يبقى لها اى استيلاء  
ولا سلطان على اذهان اكثر افراد المجتمع — وانما هى طائفة قليلة  
منهم هى التى تترك لتبقى مومنة بهذه العقائد صدقاً واخلاصاً او حرفة  
وصناعة ، أما بقية الافراد فانها يستولى على اذهانهم عقائد اخرى  
وتحيط بهم آخر الأمر الحضارة المادية .

والعيب الثانى الذى يظهر فى الحضارات الدينية أن الفكرة التى  
تؤسس عليها الحضارة كلها تكون مشتملة على امور روحانية فقط ،  
ولا تكون اخلاقها جديرة بان تعد الانسان لاحراز الرقى والتقدم  
والسعادة والرفاهية فى حياته الدنيا —

فهذه الحضارات التى لاتعد الفرد لاحراز الرقى والتقدم فى حياته  
الدنيا ، انما يبقى اثرها محدوداً فى الحياة الروحية والخلقية فقط ، ولا  
يجاوزها بحال من الأحوال الى الحياة المادية . فمثل هذه الحضارة  
لا يخلو عن احدى حالتين (على اعتبار نتائجها) .

ان تغلق هذه الحضارة سبيل الرقى والتقدم فى الدنيا على  
اهلها — أو يسير الافراد فى سبيل الرقى والتقدم ولا يبقى تأثير  
الحضارة عليهم .

وعندما يزداد انهماك الافراد فى السعى والجهد للتقدم فى الحياة  
الدنيا ، لا بد ، ان تتحرر اخلاقهم وروحانيتهم أيضاً من سلطان العقائد  
الدينية التى تؤسس عليها الحضارة وأحسن مثال على هذا فى الزمان  
القديم الحضارة البوذية فى اليابان والحضرة المسيحية  
الرهبانية فى اوروبا ، فلما كان اهلها راسخين أقوياء فى معتقداتهم  
الدينية كانوا على أسوأ ما يكون من ادوار الانحطاط والتخلف ، ولما  
أحرزوا لانفسهم الرقى والتقدم فى حياتهم العملية والعقلية والمادية  
ماعدوا مؤمنين بمعتقداتهم الا اسماً .

وهذا فرق عظيم فى التاريخ بين معتقدات الاسلام ومعتقدات الديانات الأخرى فى العالم : اما المسلمون فكانوا أقوياء فى ايمانهم بمعتقداتهم لما كانوا أرقى امم الارض تقدما وازدهارا وقوة ومجدا ، ومادب ديبب الضعف فى ايمانهم الا بعد أن تخلفوا فى ميادين العلم والعقل وضعفوا فى صراعهم للرقى الدينوى ، وتحكمت فيهم واستولت عليهم اقوام أجنبية وهم فى هذا العصر على أسوأ ما يكون من ادوار انحطاطهم ، وهم مبتلون ابتلاء شديداً يمرض ضعف الايمان ، وقد كانوا على احسن ما يكون من ادوار تقدمهم ورقبهم قبل الف سنة وكانوا راسخين اقوياء بمعتقداتهم الدينية .

وبعد فهذا البحث الذى سقناه نستنتج منه هذه النتائج التالية .

النتيجة الاولى : لكل حضارة فكرة أساسية تؤسس عليها الحضارة -  
النتيجة الثانية : الحضارات المادية او الحسية او الدينوية فقط لاتخلو من العيوب والعلل فى أساسها بسبب عدم وجود العناصر الدينية وهذه العيوب والعلل تنخر فى بنائها -  
النتيجة الثالثة : الحضارات الدينية لاتخلو من العيوب والعلل بسبب وجود الاوهام والخرافات الباطلة او بسبب تحديد المعتقدات فى الحياة الروحية فقط وتبقى بقية شعب الحياة مفتوحة خالية من أى عقيدة أو فكرة اساسية -

فنستطيع ان نقول أن نجاح الحضارات الدينية رهين بشرطين -

١ - ان تكون الفكرة التى تؤسس عليها الحضارة صالحة للتصديق

والاذعان من الوجهة العقلية .

٢ - ان تكون الفكرة جديدة بأن تعد الفرد والمجتمع لاحتراز التقدم

والسعادة فى حياته المادية أيضا مع حياته الروحية .

والخلاصة هي :  
 (الحضارة) + (العناصر الدينية) - (المعتقدات الواهمة وتحديد  
 المعتقدات في الحياة الروحية فقط) = الحضارة المحكمة .

## التعليقات

- ١ - أنظر بياناً مفصلاً لمفهوم الحضارة في مقدمة ابن خلدون (مصر، بولاق ، ١٣٢٠هـ) ص : ١ -  
 ٣٥٠  
 وقارن : پ . ارملاس

- ٢ - راجع ول اينڈ ايريل دورانت

Pedro Armillass , The Concept of Civilisation , International  
 Encyclopedia of Sicial Sciences (New York, 1968)  
 Vol . 16 pp. 218 — 9.

Will and Ariel Durant ; The Lessons: of History  
 ( New York , 1968) P. 87.